الفصل الثالث

إسبانيا المسيحية
والحضارة العربية الإسبانية

ثمة نظرية جديدة، لا تنقصها الأدلة، ولا قوة الإقناع، تحاول أن تحل مشكلة سبق أن طرحها كثيرون من المؤرخين، وهذه النظرية تحاول أن تبرهن على أن غارة الإسلام المفاجئة، وغير المتوقعة، فى مطلع القرن الثامن الميلادى، على اقتصاد العالم اللاتينى، أدت إلى نتيجة فاجعة، لأنها أتت على الرابطة الروحية لهذا العالم، وكانت تبدو أقوى ما تكون صلابة، وهى وحدة البحر الأبيض المتوسط(١). ومثل هذه الرابطة، ولم تستطع الغزوات الجرمانية التى اجتاحت أرض رومانيا القديمة أن تأتى عليها، كانت قوة الغزو العربى الذى لا يقاوم كافية لكى تأتى عليها، وإلى الأبد، فى سنوات قليلة، وحدث حينئذ أن وجدت نهاية التقاليد القديمة، ومصير أوربا الغربية، نفسيهما فى منعطف أساسى، وحدث هذا فى نفس اللحظة التى حاولت فيها تأثيرات القسطنطينية أن تعطيها شكلا بيزنطيا.

لقد أصبح البحر الأبيض المتوسط، بحرنا القديم mar nostrum بحيرة إسلامية، وفقد الصدارة فى مجال التجارة، والمبادلات الفكرية مع العالم اللاتينى، وبدأ حينئذ عصر مظلم تقلصت فيه الدول الأوربية، ولم يعد البحر الأبيض رومانيا، وحتى قيام الساعة، وعاشت كل واحدة منها منطوية على نفسها، وأخذت توجه محور حياتها السياسية نحو الشمال تدريجيا، وهكذا مضى قرن كامل قبل أن تتكون إمبراطورية شارل عام ٨٠٠م، ومع ضياع البحر الأبيض اتسعت الثغرة المفتوحة بين الشرق والغرب، وبدأ تاريخ أوربا المتعبة القلقة، فى مواجهة إسلام يتدفق حيوية، ويفيض مروءة، إنها بداية العصر الوسيط.

وإذا انطلقنا من هذا الموضوع، وحاولنا أن نعدد ما يمكن أن يكون حدث فى تطور العالم القديم، قبل أن تدخل القوة العربية فيه، فقد ينتهى بنا هذا إلى ما لا نهاية، كما أن من السهل أن نتنبأ بأشد الإفتراضات إيحاء. وفيما يتصل بإسبانيا يمكن أن نؤكد بقوة أن فتح المسلمين لها إنحرف بها بعيدا عن الطرق التى سلكتها فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا خلال العصر الوسيط، ومن جهة أخرى، وكما لاحظ بعض المؤرخين(٢)، أى أحداث ضخمة كان يمكن أن تهز فرنسا لو اجتاحها المنصور بن أبى عامر قريبا من نهاية القرن العاشر الميلادى، فى اللحظة التى كانت فيها إمبراطورية شارلمان تلفظ أنفاسها الأخيرة؟. وقد يسأل أحدهم: لماذا؟ ودون أن

نذهب بعيداً نشير إلى أن المدرسة التاريخية المعاصرة لا تؤكد بقوة على هذا الظرف الغامض، لأن البحر الأبيض المتوسط عندما أصبح بحيرة إسلامية لم يتحول فى الوقت نفسه إلى بحيرة همجية، أو بحر مظلم، كثيف الضباب، لا تقوم عليه أية منارة تنير فى قادم الأيام جوانبه وشواطئه.

إن الهدف الذى نرمى إليه الآن مختلف تماما، وأشد تواضعا: أن نلقى بشىء من الضوء على التداخلات المتبادلة بين الإسلام والمسيحية فى شبه جزيرة إيبريا، تداخلات حقيقية متواصلة، داخل إسبانيا الإسلامية وخارج حدودها، على امتداد العصر الوسيط، وأن نظهر كذلك أن الأندلس لم يكن يحمل السلاح دوما فى وجه جيرانه، حتى فى اللحظة التى بلغت فيها من القوة حدا لا يقهر، وإنما كانت هناك فترات من هدنة حقيقية، قد تمتد أعواما طويلة، أعطى الأندلس خلالها بسخاء أكثر مما تلقى، وبرهن دائما على روحه المتسامح فيما يتصل برعاية المسيحيين، وهو ما لا يحلم أحد بإنكاره اليوم أو الشك فيه.

وما من مكان فى العالم الإسلامى، دون ريب، كانت العلاقات فيه بين الإسلام والمسيحية ضرورة كما كانت فى إسبانيا العربية، لقد حافظ الجانب الأكبر من شعبها، فى القرن الأول من الفتح على الأقل، على الدين الرسمى القديم لدولة القوط، وفيما بعد، حتى بعد أن دخل الإسبان المسيحيون فى الإسلام أفواجا، ليتمتعوا

بنظام مالى أفضل، فإن جانبا لا بأس به من الرعايا المسيحيين ظلوا يشكلون فى المدن الأندلسية جاليات مزدهرة، لها كنائسها وأديرتها، ورئيسها المسئول عنها، وعن ضرائبها، وقاضيها الذى يطبق فى أحكامه القانون القوطى القديم، تحت إشراف الدولة الأموية ويخضع لرقابتها.

أما الملاحقات النادرة التى عانت منها تلك الجاليات فمردها دائما مسيحيون متهوِّسون يرفضون أن يتراجعوا فى تهجمهم على دين أصحاب الدولة. والحق أن أبناء بجدتهم، من القسس أو العلمانيين، كانوا ينكرون هذه التهجمات علناً.

كان الأمير، أو الخليفة فيما بعد، يقر دائما، تقريبا، ما تنتهى إليه الانتخابات التى تجرى لا ختيار كبار رجال الدين، وبخاصة مطران طليطلة وأسقف قرطبة، ويستخدم هؤلاء الأحبار أنفسهم، إذا دعت المناسبة، فى السفارات والمهمات السياسية السرية[٣]، ولم يكن من النادر فى شىء أيضا أن تجد بين رجال الدين المسيحيين الإسبان من أجاد اللغة العربية وتضلع فيها، وحذق آدابها، مما يتيح لنا أن نفترض وجود صلات ودود، ووثيقة، ومتصلة، بين مختلف عناصر السكان، وفيما يتصل بهذا الجانب نملك شهادة معاصرة لا يمكن الشك فى قيمتها، لأنها صدرت عن واحد من أبرز أبطال مناهضة الإسلام نشاطا فى شبه جزيرة إيبريا خلال القرن التاسع الميلادى وهو ألبارو القرطبى

Alvaro، فهو يحزن لعدم اهتمام المسيحيين فى إسبانيا بلغتهم، وجهلهم باللغة اللاتينية، ويمجد فى بلاغة رائعة الثقافة الأندلسية، ولما تزل فى دور التكوين، عندما يصيح فى فقرة ما أكثر ما نستشهد بها : إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويدرسون مذاهب الفقهاء والفلاسفة المسلمين فى عمق، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحداً، من غير رجال الدين، يقرأ الشروح اللاتينية التى كُتِبَتْ على الأناجيل المقدسة. ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء الرسل. ياللحسرة!... إن كل الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويقبلون عليها فى نهم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن كتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها إنتباههم، يا للألم!.. لقد أُنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد واحدا منهم بين الألف يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة فى اللغة العربية فإنك واجد فيهم عدداً عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالا(٤).

لم تكن الهوة بين الإسلام والمسيحية، خلال العصور الأولى

تلك، لا واسعة ولا عميقة، كما كان يطيب لنا أن نتصورها وأن نؤكدها حتى زمن ليس ببعيد، وحتى الخلاف فى العقيدة لم يقف حائلا دون قيام علاقات زوجية، ولدينا على هذا أمثلة عديدة، حتى فى عصر الفتح نفسه، فقد تزوجت **أَيْلُة** Egilon أرملة لذريق Rodrigo آخر ملوك القوط، وتكنيها المصادر الإسلامية بأم عاصم، من **عبد العزيز** ابن القائد موسى بن نصير، وتزوجت Lqmpegia ابنة Eudes، **دوق أقيطانية**، من **منوسة** حاكم منطقة جبال البرانس المسلم، ولدينا شواهد عديدة، وفى كل العصور على الزواج المختلط بين شخصيات تنتمى إلى الطبقة الخاصة، أو يجرى فى عروقها الدم الملكى، فالخليفة العظيم **عبد الرحمن الناصر** حفيد أميرة مسيحية من الباسك اسمها **إنييجة** Iniga، وتطلق عليها المصادر الإسلامية اسم درّ، وتزوج **المنصور بن أبى عامر**، الحاجب الشهير، من إحدى بنات **شانجه الثانى** Sancho، ملك نبرة، ودخلت التاريخ الأندلسى تحت اسم **عبدة**، وتركها المنصور تعطى ابنها **عبد الرحمن** لقبا رومانثيا مألوفا لها، فكانت تناديه **شنجولِ** Sanchuelo، وهو تصغير لفظِ شانجه، تدليلا له، وكى يُذكرها بأبيها(٥).

ومن جانب آخر، ما أكثر ما حظيت قرطبة، فى القرن العاشر الميلادى، بمشهد السفارات القادمة من ممالك الشمال، وكان الأمير أو الخليفة، يزدهى ما وسعه احتفاء بمقدمها، فيلقاها فى أبهى

حلله، ويخرج إليها فى أروع مواكبه، ويحكم لقاءها مراسم دقيقة، ولو أن مثل هذه اللقاءات لا يمكن أن تقارن بالأبهة التى كان الخليفة يظهرها احتفاء بالسفارات التى تأتيه حتى عاصمة ملكه، موفدة من قبل إمبراطور القسطنطينية.

وقد ظلت قرطبة وبيزنطة تتبادلان العديد من السفارات الدبلوماسية، على امتداد القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ووجود مثل هذه العلاقات دليل بنفسه على المكانة العالية التى كانت تتمتع بها الإمبراطورية الأموية فى نظر أوربا المسيحية، فى الشرق والغرب على السواء، لاسيما وأن المبادأة فى هذه العلاقات، ويبدو لأول وهلة أن ليس ثمة ما يسوغها، جاءت من قبل الإمبراطورية تيوفيل، وهو من الأسرة الأمورية، حين أوفد فى عام ٢٢٥ هـ - ٨٣٩م، سفيرًا إغريقيا يحمل إلى الأمير عبد الرحمن الثانى رسالة يطلب فيها سيده من أمير إسبانيا العربية عقد معاهدة صداقة، ويلمح إليه فى الوقت نفسه، فى كلمات مواربة، أن يأخذ فى شرقى المغرب مكان العباسيين ومن يدينون لهم بالولاء إسميا، وهم أغالبة أفريقية.

ولم يجد اقتراح الإمبراطور قبولا لدى الأمير الأموى، ولكن رده كان مؤدبا، وقابل لطف الإمبراطور بمثله، وأوفد إليه سفارة تتكون من الشاعر يحيى الغزال وأحد الفلكيين، ويبدو أن هذا هو مخترع الساعة المائية الشهيرة، ولو أن ثمة رواية أخرى تجعل من بغداد

مكان اكتشافها، وتقول إن هارون الرشيد قدمها هدية إلى شارلمان، وقد استقبل الإمبراطور تيوفيل، والإمبراطورة ثيودورا، رسولى أمير قرطبة فى القسطنطينية، بحفاوة بالغة، وعادا مثقلين بالهدايا للأمير الإسبانى[6].

وعلى هذا النحو تمت سلسلة من الاتصالات فى المناسبات المختلفة، وأصبح تبادل السفراء بين قرطبة وبيزنطة فى عهد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر، أمرا معتادا، ونعرف أن الأخير منهما طلب من نيسيفور فكاس أن يرسل إليه خبيرا فى صنع الفسيفساء لاستخدامه فى تزيين السعة التى كان يزمع القيام بها فى مسجد العاصمة الجامع[7]، وكان هذا، وهو منطقى تاريخا، مصدر التأثير الذى مارسه الفنانون البيزنطيون على فن الزخرفة، فى بعض مبانى العاصمة الأموية فى الأندلس.

يحدث أحيانا أن تظهر بغتة سحابة سوداء تعكر صفو السماء الأندلسية لفترة ما، فى مناسبات مختلفة، وفى قمة عصور السلام الداخلى، ومهما يبدو قليلا واهنا ما أحدثه النور مانديون من تأثير فى حضارة الغرب العربى، فى هجوماتهم المستمرة على سواحل شبه الجزيرة، ومهما كانت متباعدة، فإننا لا نستطيع الصمت بسهولة عن ذكريات تلك الغارات الإسكندنافية المفاجئة رغم أنها لم تبلغ فى أية لحظة حد المأساة كاملة، ولكنها جعلت إسبانيا الإسلامية على أهبة الاستعداد دائما، على نحو ما حدث ذلك تماما مع الخطر

الفاطمى، وكلا الأمرين أرغمها على أن يكون لديها أسطول بحرى قوى، وبحارة مهرة، وبناء قلاع دفاع قوية وصامدة على امتداد شواطئها(٨).

ومن الأمور المتفق عليها أن غارات هؤلاء الفيكنج، أو المجوس كما يسميهم المسلمون، لم تترك وراءها أى أثر فى البلاد، ولكن هذا التأكيد يحمل طابع العجلة، إذا لم نبرهن عليه بصورة قاطعة، وطبقا للإشارات الواردة فى بعض النصوص العربية، فإن النورمان لم يعودوا جميعا إلى البحر ثانية، وإنما تخلفت منهم جماعات صغيرة، استقرت فى بعض أنحاء شبه الجزيرة، وبخاصة فيما حول إشبيلية، بموافقة سادة المملكة الأموية، وغنى عن البيان أن مرور أجيال منهم كاف ليصهرهم فى بوتقة الأندلس وثقافتها.

إن تأثيرات إسبانيا المسيحية على إسبانيا العربية، قبل أن تصبح هذه تابعة سياسيا لأفريقية، لا يمكن أن تقارن، ولو من بعيد، بتأثرات إسبانيا العربية فى إسبانيا المسيحية، حتى ولو أخذنا فى الاعتبار الإضافات المتفرقة فى عالم الفن، أو المتصلة ببيزنطة النائية، والتى تمكن الأندلس من بسطها طوال تلك العصور ذاتها على ممالك الشمال الإسبانية، وعلى نحو أقل، وبطريقة أدنى مباشرة، على جنوب فرنسا.

لقد كان الإشعاع الذى تمارسه قرطبة يومها على المسيحية الغربية حقيقة لا يمارى فيها، وهو يبرر من جهة أخرى، لماذا كان

العطاء من جانب واحد طبيعيًا، ولم تكن ثمة مبادلات بين الجانبين، ومنذ ذلك العصر أخذ هذا الإشعاع فى تأكيد ذاته، على نحو ما تؤكده لنا بعض الوثائق، ولو أنها لسوء الحظ قليلة جدا، فنحن نعرف أن الشاعرة السكسونية روزيتا Hroswtha نظمت أبياتا من الشعر، فى منتصف القرن العاشر الميلادى، وهى فى ديرها منعزلة بألمانيا، تصف عاصمة الأمويين الأندلسيين بأنها: «جوهرة العالم الساطعة، مدينة جديدة ورائعة، فخورة بقوتها، شهيرة بمباهجها، مزهوة بما تملك من خير وفير»* وأن أوتون Oton الأول إمبراطور جرمانيا أرسل جان جورز سفيرا إلى عبد الرحمن الناصر عام ٩٥٦م، وينقل إلينا مترجم حياة هذا السفير أن الدهشة غمرته عندما وجد نفسه وسط أضواء الحضارة القرطبية؛ رغم أنه كان يعرف عنها من قبل أنها رقيقة ومصقولة[٩].

وعندمانبحث عن طبيعة هذه المؤثرات ندرك أنه لا يجب أن نغفل فيما يتصل بالجانب الاقتصادى الاجتماعى لإسبانيا الإسلامية بعض الأشياء التى تخلفت من عصر القوط، وصمدت خلال الدولة الإسلامية، فلم يكن العرب بالتأكيد هم أول من أقام نظام الإقطاع فى الأندلس، وكان قاعدة الاسترقاق الزراعى، وبالتالى أساس نظام الرق فى العصور الرومانية، ولم يزد العرب على أنهم

* اقتصر المؤلف على جملة واحدة وهى «جوهرة العالم» وأتينا على الفقرة كاملة.
(المترجم)

رسخوا هذا النظام على نحو ما كان فى أيام ملوك طليطلة من القوط*.

وقد استطاع كبار الملاك الذين ينحدرون من أصول نبيلة أن يحتفظوا بتلك الأملاك الواسعة عن طريق المصاهرة مع الأسر العربية، وأتاحوا لسادة الأندلس الجدد أن يفيدوا من هذا النظام عن طريق الاستغلال، وعلى الرغم مما فى هذا من قسوة إنسانية تقرب بالفلاح الذى وُلد حراً من حالة العبودية، فقد سبق له أن أظهر مزاياه لزمن طويل.

لقد انصرف عرب شبه جزيرة إيبريا، فى المقام الأول، إلى الحفاظ على التقاليد السورية سالمة فى موطنهم الجديد، وبعدها أخذوا مما جدد العباسيون فى نطاق الحياة، ودون أدنى شك تخيروا قليلا مما وجدوا من حضارة الذين سبقوهم مباشرة على نحوما وجدوها لحظة افتتاح الأندلس، وإذا تركنا جانبا بعض الإشارات العابرة فى التنسيق المعمارى للمبانى القديمة، فليس لدينا فى كل الحالات ما يبرهن على ذلك، ومن والواضح أن ثقافة المستعربين أصبحت الوارث الوحيد للتراث القوطى، ومع ذلك فحين تتميز

* الأمر هنا، فيما أرى، يحتاج إلى فضل بيان : ليس حقا أن المسلمين أبقوا على الإقطاع نظاما فى الجانب الإسلامى من الأندلس، ولم يعرفوا لاتقليدا ولاعادة ولادينا نظام رقيق الأرض، ومصدر الرق فى الإسلام هم أسرى الحروب وحدهم. نعم، إنهم تركوا المسيحيين الأندلسيين وماهم عليه فى إقطاعهم، وهو إقطاع لم يستمر إلا سنوات الفتح الأولى ثم تلاشى مع الزمن. (المترجم)

عن الثقافة الإسلامية تصبح فى أعلى درجاتها فقرا وركاكة.

وثمة تأثير آخر ليس من السهل تحديد مجاله أيضا، ولكن لا يجب إهماله عند الحديث عن إسبانيا الإسلامية، فى هذه الفترة، وهو الأثر الذى استطاعت أن تحدثه فيها، خلال فترة طويلة، الإضافات المتوالية التى حملها معهم **صقالبة أوربا**[١٠]، ومن الضرورى أن نمتد بمدلول هذا اللفظ لكى يعنى ما نفهم من كلمة رقيق بالفرنسية Esclave، ويطلق لفظ الصقالبة على الرقيق من الأوربيين الذين كان يشتريهم المسلمون فى إسبانيا، ليزيدوا بهم جيوشهم عددا وقوة، وفى بعض الحالات ليكونوا خدما وقهرمانات داخل القصور، وبلغوا فى القرن الحادى عشر الميلادى بخاصة عددا هائلاً، فكان منهم فى قرطبة وحدها، وفى بعض الحالات، خمسة عشر ألفا أو يزيدون، وكان يؤتى بهم من بلاد أوربا الوسطى والجنوبية، ومن شواطئ البحر الأسود، ومن كلابر ولومبارديا، وغيرها، وكان من بينهم أيضا من تعود أصولهم إلى شمال شبه الجزيرة.

أما الخصيان، وهم المعينون لخدمة الحريم، فكان التجار من اليهود يأتون بهم لبيعهم فى الأندلس، وكان لهم صيادون ومعامل لخصائهم فى جنوب فرنسا، وفى مدينة فردان منها بخاصة، وكثيرون من هؤلاء الصقالبة أعتقوا، وأصبحوا أحرارا، وبالذات أولئك الذين كانوا يعملون فى قصر الخلافة، وبعد عتقهم ظلوا

يواصلوان العمل بين خاصة خدم الخليفة، ويحملون لقب «موالى». وما لبثوا أن بلغوا شأوا عاليا، ومكانة ممتازة، فى نطاق الإمبراطورية القرطبية، وسرعان ما أصبحوا طبقة حقيقية، ذات امتيازات ملحوظة، وفيما بعد، عندما تهاوت الخلافة، كونوا حزبا معارضا، يناهض الجماعة العربية الأندلسية، والحزب البربرى معا، وفى نفس الوقت، بانتظار أن يستطيع الأشد بأسا من بينهم تكوين إمارات صغيرة مستقلة، تكون لهم أنفسهم، على امتداد الساحل الشرقى لشبه الجزيرة، فى دانية، وبلنسية، وطرطوشة.

وقد اعتنق هؤلاء الصقالبة جميعا الإسلام، وفى سرعة فائقة، ونملك على ذلك شواهد لا يمكن إنكارها، وكانوا يُحملون إلى إسبانيا صغارا، فتعلموا لغات الأندلس، واتخذوا الطابع الأندلسى كاملا، ومع أنهم فقدوا كل اتصال مع بلادهم الأولى، إلا أنهم استطاعوا مع ذلك أن يحملوا، على الأقل، بعض التقنيات الجديدة، وبداهة جاءوا معها فى الوقت نفسه بالألفاظ التى تتطلبها هذه، مهما كانت قليلة، ولا صلة لها بالتراث الثقافى.

* * *

إن أعمق أثر مارسته شعوب شبه الجزيرة الأصلية، فيما يبدو، خلال العصور الوسطى، كان فى لهجات الأندلس الجارية، على جانبى الحدود الإسلامية، ففى البدء أدى الاحتكاك الدائم بين الإسبان وبين العرب والبربر المتعربين إلى أن يتعلم هؤلاء اللهجة

الرومانثية اضطرارا، وهى متفرعة من اللغة اللاتينية - الإيبرية، لكى يتحدثوا بها عندما تضطرهم الظروف، وكانت هذه اللجهة الوسيلة الوحيدة للتعبير التى تعرفها عامة الشعب الأصلى فى المدن، وتجمعات المسيحيين فى الضياع، أو المولدون الذين كانوا يسكنون الريف حينئذ. وفيما بعد كان على هذه اللغة الرومانية أن تمد عامية أهل الأندلس بالجانب الذى تحتاج إليه من المفردات ذات الدلالة الحسية.

ونحن الآن على يقين ثابت تقريبًا من أن نسبة عالية بين المسلمين فى الأندلس كانت، خلال كل عصور الإسلام، تتكلم لغتين، وتستخدم العربية والرومانثية فى سهولة، داخل بيوتهم أو خارجها فى الشارع، وكان المسلمون الجدد؛ كما هو منطقى، يكونون الجمهرة الغالبة بين مزدوجى اللغة هؤلاء، ولكن حتى الذين ينحدرون من أصول عربية خالصة، لم يكونوا يأنفون، فيما يبدو من استخدام اللغة الرومانثية فى أحاديثهم الأسرية، وبين كل طبقاتهم الاجتماعية، بما فى ذلك، قاعات قصر الخلافة نفسه[11]، مع مراعاة أن هيبة اللغة العربية المكتوبة ظلت فى عليائها دائمًا لم يمسسها وهن أبدًا.

فيما يتصل بتغلغل الرومانثية فى عامية أهل الأندلس لدينا شواهد لا يمكن دفعها، فقد سجلتها بين مفرداتها المعاجم العربية اللاتينية، أو العربية القشتالية، التى ألفت فى إسبانيا نفسها خلال

العصور الوسطى، وليس أقل منها برهانًا وإقناعاً المفردات العديدة، ذات الأصل الرومانى، والتى تعيش حتى يومنا، ويمكن التقاطها فى لهجات شمال المغرب العربية، أو فى المدن الكبرى ذات التقاليد الإسبانية، مثل فاس وطنجة وتطوان.

وحتى لو أسقطنا من حسابنا الكلمات الرومانثية التى تعرض لنا خلال كل صفحة من ديوان ابن قزمان مثلا، يكفى أن نلقى نظرة خاطفة على أعمدة المعاجم التى أُلفت فى إسبانيا المسيحية تسهيلاً لمهمة المبشرين، عندما بدأت هذه تحمل مسلمى المقاطعات التى استردتها على اعتناق الكاثوليكية قسرًا، لكى نقدر مدى التأثير الذى مارسته اللهجة الرومانثية فى تكوين اللهجة العامية التى كان يتحدث بها مسلمو شبه الجزيرة، تاركين جانبًا بالطبع المصطلحات الدينية المسيحية، وتكاد تكون كلها عربية تقريبًا. وهذه اللغة فرضت عليهم عديدًا من المفردات حلت مكان كلماتهم الكلاسيكية التى تقابلها فى المعنى، وفرضت أيضًا من خواصها الصرفية والنحوية، وما يتصل بالاشتقاق وتركيب الجملة، وشاع استعمالها، مثلها فى ذلك مثل التعابير العربية الصرفة، أو التى تعربت منذ زمن طويل. ومن بين هذه التأثيرات ما يتصل بأواخر أسماء الفاعلين، والنسبة وأسماء التصغير، فكانت العامية الأندلسية، تستخدم، مثلا، العلامات الرومانثية ella و ero فتطلق على من يتولى إدارة الفندق لفظ « فندقير Fundakair »، بدل

أن تقول « فندقى »، وتقول فى تصغير حارة Hàra حاريَّة Harella بدل حويرة وتطلق حارة فى عربية أهل الأندلس على الحى، أو الربع، أو المحلة. ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن ما أعارته العربية الإسبانية إلى اللغة الرومانثية خلال العصور الوسطى كان محدودًا، إذا قارناه، ولو من الناحية العددية، بما قدمته اللغة القشتالية، وكانت حينئذ فى طور الرسوخ، إلى اللغة العربية من مفردات خلال الفترة نفسها.

هذه الاستعارات الأخيرة أعطت اللغات القومية المعاصرة فى شبه الجزيرة القشتالية والبرتغالية والقطلونية، أريجًا عبقًا ونفاذًا من اللغة العربية، وهى تثير الفضول، وتستدعى الدراسة، ودراستها لا تقف عند حد دلالاتها اللغوية، وما يمكن أن تضيفه إلى فقه اللغة فحسب، وإنما تكتسى طابعًا مهمًا ومتميزًا إلى حد كبير، حين تمتد بها إلى ما هو أبعد من هذا، فتشمل وقائع الحضارة التى بررت مثل هذه الاستعارات اللغوية، وتقدم لنا الدليل ضمنا، ولكن لا سبيل إلى إنكاره، على التأثير العميق الذى مارسته الثقافة العربية الأندلسية على الشعوب المسيحية، فى الكتلة الإيبرية نفسها.

ودون أن نرغب فى تبسيط المسألة إلى أبعد حد، ونحن نطرح موقف أصول اللغة الإسبانية، وهى مشكلة معقدة، يمكن أن نبرهن على أن هذه اللغة، واشتقت فى أصولها من اللهجات

الإيبرية اللاتينية، التى أصبحت تشكل الرومانثية الإسبانية، وجدت نفسها مضطرة طيلة مراحل نموها، وحتى القرن التاسع الميلادى على الأقل، إلى أن تأخذ من اللغة العربية كل ما كان ينقصها حينئذ، لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة، وبخاصة فى مجال المؤسسات والنظم والحياة الخاصة، والبرهنة على هذا غنية بالشواهد الواضحة على نحو فريد.

وحين نلقى نظرة على مصطلحات العصر الوسيط، وحتى فى العصر الحديث، المتصلة بالنظم المدنية أو العسكرية فى إسبانيا، فسوف نكتشف فيها عددًا ضخمًا من المفردات ذات الأصل العربى، ففى رُتَب الجيش تطلق كلمة الفارس Alferaz العربية حتى الآن على رتبة الملازم، ومقدمة الجيش يطلق عليها الطليعة Atalaya، وعلى المؤخرة الساقة Zaga وغيرها.

ومازالت كل المفردات تقريبًا المتصلة بالتحصين تحتفظ إلى الآن بنفس المعنى الذى كانت عليه فى العصر الإسلامى، ومازالت اللغة العربية تحتل مكانًا هامًّا فى مصطلحات المعمار الفنية، فالبناء يتأخذ الاسم العربى نفسه albanil، والملاط يطلق عليه الاسم العربى طابية tapia، ولفظ الطوب دخل بنفس مفهومه العربى adobe.

وتأثير العربية ليس بأقل وضوحًا فى المفردات المتصلة بمؤسسات الدولة، فالضرائب يطلق عليها المصطلح العربى القبالة alcabala،

وحتى وقتنا الحاضر يطلق على رئيس البلدية اسم alcalde، وهى لفظ القاضى العربى أصابه تحريف بسيط، وكان مسيحيو شمال إسبانيا يستخدمون فى الوقت نفسه الكلمات العربية التى تدل على المناصب المدنية مثل : صاحب المدينة Zalmedina، وصاحب الشرطة Zavazorta : وخلال زمن طويل كان يطلق على الموظف المكلف بضبط المكاييل والموازيين اسم المحتسب almotacèn، وهو لفظ مأخوذ من العربية مباشرة[١٢].

سوف تطول بنا الرحلة بعيدًا، وربما أدى بنا الإسهاب إلى الملل، إذا حاولنا أن نستقصى المفردات التى دخلت لغة الحياة اليومية، ومن ثم سوف نقتصر هنا على الإشارة إلى الأنواع المتعلقة بمعانى الكلمات، والتى يمكن أن تُلمح إلى الجانب الأكبر من هذا التأثير، ومع ذلك نُذكر فى إيجاز مختصر بالدور الكبير الذى قامت به اللغة العربية فى أسماء الأمكنة، ولما تزل قائمة حتى وقتنا هذا، فهو يدلنا، وبخاصة فى جنوب شبه الجزيرة، على أن الأسماء العربية غطت على الأسماء الإيبرية القديمة فى أحايين كثيرة، ثم أتت عليها أخيرًا، ولا تزال الأسماء العربية الأصل حية ومتغلبة فيما يتصل بالأنهار، مثل : الوادى الكبير Guadalquivir، أو الوادى الأبيض Guadaviar، وأسماء الحصون، مثل : المدور almodavar، أو حصن الحجر Iznajar، وأسماء المدن مثل : مدينة سالم Medinaceli، وقلعة أيوب Calatayud، أو البسيطة albacete.

ولا تزال العربية باقية حتى يومنا فى لغة الفلاحين الصميمة، وبخاصة مفردات بعض المصطلحات التقنية الزراعية، وتظهر مرة أخرى فى المقاييس والموازين الريفية أيضًا، سواء ما اتصل منها بقياس الأرض ومساحاتها، أو أوزان المحاصيل وقدرها. وفيما يتعلق بالرى تعود الطرائق المتبعة إلى العصر القوطى، دون أدنى شك، وتختلف فى تفاصيلها عن الطرق المتبعة فى شمال إفريقية ومصر بخاصة، وبفضل طرق الرى هذه مازالت الأراضى فى شرقى إسبانيا تحرث على نحو ما كان عليه الأمر أيام المسلمين. وهذا لا يعنى أن مصطلحات الرى ليست عربية، إنها عربية كلها تقريبًا، ما عدا الشاذ النادر منها، ابتداء من كلمة الناعورة noria، وهى لفظة انتقلت من الإسبانية إلى الفرنسية، وكذلك فى المفردات الخاصة بصيد البحر، وبخاصة حين تتم ممارسة الصيد بالشباك، أو المضربة كما تسمى فى العربية، وهى كلمة دخلت الإسبانية فى صورة almadrabas وانتقلت إلى اللغة الفرنسية فى صورة madragues.

وما تحتويه معاجم النبات من المفردات العربية لا يقل نسبة عن ذلك. فأغلب أسماء الفاكهة والزهور التى تزرع فى إسبانيا حتى الآن تشهد بما أخذته الإسبانية من العربية مباشرة من أسماء، وهذه بدورها أخذتها من الفارسية، وعدد منها عبر جبال البرانس، فانضم إلى المعجم الفرنسى، مثل: البرقوق، وهى المشمش،

ودخل الإسبانية فى صورة albaricoque، وفى الفرنسية abricot، والزعرور azerole، والياسمين jazmin والقطن algodon، والزعفران azafran، ومازال الزيتون يحمل اسمه العربى aceituna، وكذلك الزيت aceite، ويرد على الخاطر فيما يتعلق بهذه الثمرة ومشتقاتها : لماذا لم تحمل لفظها اللاتينى، كما هو الحال فى اللغة الفرنسية، ما دامت زراعة الزيتون لم تكن مما أدخله العرب فى أسبانيا.

وتدين اللغة الفرنسية للغة العربية، عن طريق الإسبانية، بعدد من أسماء الألوان، لا صلة له بأسماء الثمار أو الزهور، مثل كلمة أزرقazur، والأصهب alezan، وقرمزى carmaisie، أو شقائقى ecarlate، وكان مصير هذه الكلمة بالغ الغرابة، لأن الكلمة التى تقابلها فى العربية الإسبانية جاءت بدورها، على الأرجح من الكلمات اللاتينية Sigiilatus.

واللون الشقائقى، كما هو معروف، كان يعنى فى الأصل قماشًا من الحرير انتقل فن صناعته، دون ريب، من العراق إلى إسبانيا فى القرن التاسع الميلادى. وأسماء الأقمشة فى الأندلس الإسلامى تكاد تكون كلها، على حد سواء، ذات أصل أسيوى عربية خالصة أو مأخوذة من اللغة الفارسية، ذات صلة بالمدينة التى ازدهرت فيها صناعتها بالمشرق، ومعظم هذه الأسماء أخذ طريقه إلى إسبانية العصور الوسطى، وإذا كان معظمها قد استقر الآن فى

زاوية النسيان، فلم يبق منها مستعملا إلا نسبة صغيرة، فلأن الأذواق تغيرت، ولأن الأقمشة الحريرية، ذات القيمة العالية، وكانت ذات شهرة فائقة فى أوربا منذ عشرة قرون، قد تراجعت ولم تعد النموذج المفضل منذ زمن طويل.

وفى ذلك الوقت فى إسبانيا الإسلامية، كانت الألفاظ المتصلة بقص الشعر وتسريحه، والملابس وتفصيلها، والأحذية بأنواعها، عربية كلها على وجه التقريب. ولكى يتحقق المرء من هذا يكفى أن يلقى نظرة على الوثائق المحفوظة عن ذلك العصر، وبخاصة ما اتصل منها بعقود الزواج. فملابس السيدات المسيحيات تزدان من قبل أن تسقط إسبانيا الإسلامية، وحتى بعد أن استردها المسيحيون على حد سواء، بأروع وأغلى الملابس العراقية، وكانت تحمل أحيانًا اسمها العربى نفسه، فيقال: الجبة **algubas**، والدراعة adorras، وهى جبة ذات أزرار، واللحاف **allihafes**، ويعنى المعطف من الفراء، والمبطنة mobatanas وتطلق على قطع الملابس المبطنة وغيرها. ويسمى القماش المقصب **al vexi**، والنسيج الحريرى الموشى الطراز **altiraz**.

وكانت المجوهرات كذلك تحمل طابع التأثير العربى فى أسمائها نفسها، وحازت قرطبة وإشبيلية قصب السبق فى ما يتعلق «بالموضة» ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن السجاد والصناديق والأقداح. وكانت تشكل فى ذلك وقت عماد الأثاث فى بيوت

الخاصة والطبقات الموسرة، فى إسبانيا الإسلامية وممالك الشمال المسيحية على السواء[١٣].

* * *

من نافلة القول، فيما يبدو أن نؤكد من جديد على الأهمية الاجتماعية المرتبطة بهذه التأثيرات كلها، وعلى أن جمعها وتصنيفها يشهد بما وراء ذلك من فائدة تتجاوز الظاهرة اللغوية نفسها، وكلها تبرر أفضل من أية وثيقة تاريخية أخرى نملكها، مدى واتساع الإشعاع الحضارى الذى مارسته إسبانيا العربية على إسبانيا المسيحية والبلاد المجاورة لها، على نحو يشبه، وإن يكن هذا أشد كثافة، وأطول زمناً، الدور الذى قامت به صقلية العربية النورماندية فى تأثيرها على إيطاليا ما قبل عصر .Trecento.

هذه التأثيرات كلها أبلغ من أى برهان فى بيان مدى ما بلغته ثقافة الدولة الأموية من سيادة وتأثير فى شمال شبه الجزيرة، وهى بلاد دون الأندلس الغنى جمالا وخصوبة وحظًا من ثروات الطبيعة. وبفضل هذه التأثيرات يستطيع الخيال، دون خطر أن يقع فى الوهم، أن يسترجع صورة سيدات برغش Burgos، أو ليون Leon، وهن يعطرن بأسئلتهن سفراء بلاط بلادهم، إثر عودتهم من بعض المهمات الرسمية فى الأندلس، وقد نفد صبرهن، لمعرفة أنواع الأقمشة، والألوان الدارجة، والأنسجة المقصبة الثقيلة، ومبتكرات العاج وأحجار الكهرمان السوداء،

وقنانى البللور المصقول، التى كان تجار قرطبة يعرضونها فى أسواقهم[١٤].

لم يتوقف إشعاع الثقافة الأندلسية فى الأراضى المسيحية بعد أن بلغ أقصى توهجه فى القرن العاشر الميلادى، ولم يأخذ فى التلاشى بعد أن بلغ القمة، وإنما على العكس واصل تأثيره حتى القرن الخامس عشر الميلادى، وغطى وهج ضوئه كل أنحاء شبه الجزيرة، ولم يفعل ملوك قشتالة وملوك أرجون، دون أدنى شك أيضًا، شيئًا لكى يردوه عن ممالكهم، بل على النقيض من ذلك، شجعوا هذا الإشعاع، وتبنوا هم أنفسهم مظاهره فى حفلات بلاطهم، ورحبوا بشتى المبتكرات المأخوذة مباشرة من حضارة جيرانهم المسلمين، ومن الثابت المعروف أن عواهل إسبانيا كثيرًا ما كانوا - مثلا - يضربون عملتهم، خلال العصور الوسطى، وأحد وجهيها عربى الكتابة، والثانى قشتالى[١٥].

ويلاحظ أن السيد القنبطور أخذ بمفاتن الحضارة الإسلامية الأندلسية، فى أواخر حياته، عندما استقر به المقام فى مدينة بلنسية سيدًا عليها، لا ينازعه سلطانها أحد، بعد أن انتهى من حملاته الحربية العديدة التى كان يقودها طوال حياته لحساب الأمراء المسلمين، أو ضدهم على حد سواء، فتعرب بقدر لا بأس به فى حياته الخاصة، وفى طابع نظامه قائدًا وأميرًا[١٦]*.

* درسنا هذا الجانب من حياة السيد تفصيلا فى كتابنا : ملحمة السيد : دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٣.

وواقع فرناندو الثالث لا يقل غرابة عن السيد، وكذلك حال ابنه ألفونسو العاشر، الملقب بالعالم، وقبلهم بزمن طويل اندهش قرطبى مسلم، استقر فى مدينة تطيلة Tudela، فى مقابلة له جرت مع شانجه Sancho كونت قشتالة، المتوفى عام ١٠١٧ م، وهى طبقًا لرواية ابن حيان: «عندما وصلنا إلى خيمته وجدناه جالسًا على دكة مزينة ومنجدة، ويرتدى ملابسه على الطريقة الإسلامية، لا يميزه عن المسلمين إلا أنه كان حاسر الرأس»[١٧].

وأبطال حرب «الاسترداد» هؤلاء، ولم يتسرب الملل إلى نفوسهم وهم يقاتلون من أجل وطنهم وعقيدتهم، ليسوا دون غيرهم - كما رأينا - فى الإعجاب بحضارة أعدائهم السياسيين التقليديين، ويعترفون بكل ما كانت تدين به بلادهم نفسها لثقافة هؤلاء الأجانب الذين يرغبون فى إجلائهم عن أرضهم، وسوف نرى فيما بعد ذلك بكثير، أن شارل الكبير (كارلوس الخامس فى التاريخ الإسبانى) حاول، بدون جدوى طبعًا، أن يقف فى وجه مشاريع تحويل جامع قرطبة الرائع إلى كنيسة، وكان يأمل فى أن يراه سالمًا كما هو لم يمس.

وعلى الرغم من أن فرنسا كانت خلال العصور الوسطى فى عزلة عميقة بسبب وضعها الجغرافى، إلا أن هذا لم يحل، مع ذلك، دون معاناتها فى بعض النواحى لألوان من تأثير حضارة الإسلام فى الأندلس على بعض الممالك المسيحية فى شمال إسبانيا،

ذلك أن الحملة الصليبية الفرنسية عام ٤٥٦هـ=١٠٦٤م، واستهدفت مدينة بربشترو الإسلامية فى مقاطعة أرجون، كانت تضم فى صفوفها فرسانًا عديدين، قادمين فى الجانب الأكبر منهم من المقاطعات الفرنسية بقيادة أمير نورماندى، فاجأت المدينة، واستباحت حرماتها نهبًا وسلبًا، ثم قفلت راجعة عبر جبال البرانس، تحمل معها أعدادًا هائلة من الأسرى المسلمين، وليس ثمة ما يمنع هنا من الظن بأن هؤلاء الأسرى قاموا فى المدن التى سيقوا إليها، قبل أن يذوبوا فى جمهرة السكان، بتعليم الذين حولهم بعض الفنون والأساليب ونماذج الحياة التى تختلف عما عليه أسيادهم وما خطرت ببالهم يومًا*.

أغلب المفردات العربية التى أخذت طريقها إلى الفرنسية، سلكت طريقها عبر الإسبانية، على نحو ما رأينا من قبل، ومن المحتمل أن كثيرًا من التأثيرات التى تلقتها فرنسا عن الإسلام قبل زمن الحروب الصليبية فى المشرق، أو حتى أثناءها، سلكت الطريق نفسه. ولم يتحدد بعد بطريقة كافية التأثيرات المباشرة، أو غير المباشرة، التى تدين بها فرنسا العصور الوسطى للأندلس الإسلامى، وهى تأثيرات نلمح آثارها ابتداء من القرن الحادى

---

* درس نيكل مظاهر هذه التأثيرات فى مقدمة ترجمته لطوق الحمامة إلى اللغة الإنجليزية، وقد ترجمنا هذه المقدمة إلى اللغة العربية، وسوف يتضمنها كتابنا: «فى الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية»، ويصدر عن دار المعارف عام ١٩٨٦.

عشر، حين كان رهبان طائفة كلونى Cluny، وطائفة سيسترسيان Cisterciens الدينيتين، لا تتوقف رحلاتهم بين مقرهم فى فرنسا وأديرتهم فى طليطلة، مما يزيد فى تسهيل التبادل الثقافى بين البلدين، إلى جانب قوافل الحجاج الشهيرة، والتى كانت تتجه إلى كنيسة شنت ياقب santiago فى شمال غربى إسبانيا.

يجىء التأثير الفنى فى مقدمة التأثيرات التى عانت منها إسبانيا وفرنسا فى ذلك العصر، وربما كان أشد وضوحًا، ولقد برهن إميل مال Emile Màle فى دراسة مستنيرة ومستفيضة على وجودها، وتتبعها على جانبى جبال البرانس، وأثبتت أبحاثه هذه أن الفن الرومانى فى أعلى العصر الوسيط يدين لفن ما قبل القرن الثانى عشر الميلادى فى إسبانيا الإسلامية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بسلسلة كاملة من الأخذ، تتصل بنظام الزخرفة فى داخل الأبنية وخارجها، أكثر مما تمس التنسيق المعمارى بمعناه الدقيق، ولم يكن الفن الإسبانى الإسلامى، بلا شك، الوحيد الذى لعب دورا مؤثرًا فى الفن المسيحى فى رومانيا الغربية، قبل أن ينتشر الأسلوب القوطى أو الأوجيفالى Ogival وبخاصة فى قطلونية حيث رافقته إضافات لومباردية وفرنجية، وحتى شرقية، ولم يقلل ذلك من حدته ولا من قيمته. وقد تطورت الفنون الوسيطة،وفى أغلب الأحيان كانت تساعد على قيام تلك العلاقات فى شبه الجزيرة نفسها، وتميزت باسم خاص، طبقًا للأمكنة والعصور، أو تبعًا

لأصول الأساتذة الذين مهروا فيها، وتميز من بينها فن المستعربين los mozarabes، وفن المدجنين los Mudegeres.

كان فن المستعر بين أقدم الاثنين، وظهر فى إسبانيا المسيحية منذ بداية القرن التاسع الميلادى، لكى يستقر فيها بصورة نهائية تقريبًا، ويشغل مكان فن أكثر قدمًا، يدعى أحيانًا الفن الأشتورى نسبة إلى أشتورياس Asturias، مقاطعة فى شمال إسبانيا، وهو مشبع تمامًا بالتراث القوطى الذى أخذ مع ذلك مسحة شرقية على نحو ما. وقد درس غومث مورينو Gomez Moreno[١٨]، على نحو مستفيض، كنائس المستعربين التى قامت فى قشتالة وليون وجليقية، خلال عصرى الإمارة والخلافة الأمويتين فى الأندلس، ووجد أنها تتميز دائمًا باستخدام العقود التى ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة حصان.

عَبْر فن المستعربين، أو عن طريق فن الخلافة فى قرطبة مباشرة، اقتبس الفن الرومانى بلا ريب جزئيات عديدة لتزيين كنائسه، مثل استخدام الكشفات تحت الطنف، وهى طريقة فى تزيين الأعمدة نحتًا، والقوس ذات المنحى الخارجى، والقبة المضلعة، وكلها تومىء إلى ما هو جوهرى فى هذه الذكريات، وقد عكف إيل لامبير Elie lambert فى دراسة له على تحديد هذه العلاقات، ووجد نفسه مضطرًا إلى تقرير الحقيقة التالية: «إن مهندسى البناء والمزخرفين المسيحيين فى إسبانيا وفرنسا، على امتداد

عصر الفن الرومانى، اقتبسوا على التأكيد عدداً وفيراً من خيرة أشكال فن الإسلام الإسبانى المغربى، ولكنهم دائماً كانوا يقلدون هذه الأشكال فى حرية واسعة، أو بمعنى آخر يمكن القول أنهم كانوا ينقلونها بروح يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الروح الذى ألهم غيرهم إبداع هذه النماذج »[١٩].

وقد تنطبق هذه الملاحظة نفسها على المعمار غير الدينى، وهو فن لم يدرس بعد، على الرغم من أن عددًا من الآثار المدنية العظيمة، والمبانى العسكرية، والمنشئات ذات النفع العام، كالجسور والقنوات المائية المعلقة التى يرجع تاريخ إنشائها فى إسبانيا إلى العصور الوسطى. ويظهر تأثير الإسلام فى إسبانيا كذلك، بصورة لا تقل عمقا، فى تطور الفنون الصغرى، سواء أكان ذلك فى صناعة العاج، على نحو ما نشاهد فى الصناديق الإسلامية الصغيرة والجميلة، أو التى كان يصنعها المستعربون فى ورش قونقه Cuenca وقشتالة، أم فى المصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية، أم فى صناعات الأقمشة والسجاد.

وقد استمرت مراكز صناعة الأوانى المذهبة، أو ذات الشهرة المعدنية، تعمل فى مالقة، أو منسيس بالقرب من بلنسية، إلى ما بعد انتهاء حرب « الاسترداد». والشيء نفسه يمكن أن يقال عن معامل الأسلحة فى طليطلة، وصناعة الجلود فى قرطبة، وواصلت هذه عملها آخذة فى الازدهار، ومن لفظ قرطبه اشتقت

الكلمة الفرنسية Corrdonnier، للدلالة على صانع الأحذية كما هو معروف، وكانت الكؤوس المقدّسة والصلبان، وتيجان قشتالة الملكية، وملابس الرهبان التى تتميز بالفخامة والروعة، وظل الكثير منها فى خزائن الكنائس الإسبانية يحتفظون به، حتى وقت قريب، تزدان فى الغالب بنقوش تتصل مباشرة بالفن الإسبانى الإسلامى، وأحيانا تزدان بنقوش عربية، يمكن أن نتبين بشىء من التدقيق أنها آيات قرآنية أصابها التحريف على يد النساخ مع توالى الأيام، وكثرة النقل والتداول.

* * *

هذا التداخل بين الإسلام والمسيحية فى مغرب العصر الوسيط يمكن إثباته، على نحو أكثر جلاء ووضوحا، فيما يتصل بقضايا الفكر، وسنرى أيضًا فى هذا المجال أن الثقافة العربية الأندلسية ستكون عاملا هاما، ولكن علينا أن نبحث أولا بأية وسيلة استطاعت هذه الثقافة نفسها، على امتداد عصور ازدهارها، أن تلتقط وأن تتمثل جانبا من تراث أوربا، يتمثل فى الحضارة الإغريقية الرومانية، بعد أن اجتاحتها الغزوات الجرمانية، وهذه المسألة، ولا يمكن إخفاؤها، عسيرة الحل إلى حد بعيد، وقد يخيل إلينا أن ثمة تأثيراً ما، غير أننا فى الوقت نفسه لا نستطيع تقديم الدليل المادى الذى لا يقبل الجدل.

لم يبق أمامنا إذن غير أن نختلف طويلا إلى الأدب الإسبانى العربى، وقد رأيناه حتى الساعة خاضعا لتأثير المشرق الإسلامى بخاصة، اختلافا ينتهى بنا إلى تحديد تصور دقيق لحظه من الخاصية الثقافية. ولعل هذه لم تكن ظاهرة عفوية فحسب، لأن صفحات من النثر، ومقاطع من الشعر، تنضح أحيانا بنبر خاص لانألفه فى دراستنا للأدب العربى فى المشرق. والقول «بأن الإسبانى المسلم، فى القرن الحادى عشر الميلادى، يبدو لنا فى شعره كأنه خليط عجيب من القديم والحديث، من الكلاسية والرومانسية، من الشهوانية والصوفية، وحتى من الوثنية والمسيحية»[٢٠] ربما يذهب مع ذلك فى المجازفة إلى حد بعيد، بالقياس إلى ما حققه فى نهاية المطاف.

وهناك حالة واحدة، حالة رجل علم كلام وفيلسوف أكثر منها حالة أديب كاتب، ولكنها تجىء مثلا بين جميع الحالات، وأعنى بها حالة ابن حزم الشهير، وتردد اسمه مرات عديدة فيما سبق من صفحات، هذه الشخصية التى جاءت إلى الحياة مع أواخر القرن العاشر الميلادى تقدم لنا النموذج الكامل للعربى الأندلسى؛ أرستقراطى وعالم، ويمت لأواخر عصر الخلافة، وقد نشأ والده عصاميا، فتخلى عن أملاكه القليلة فى مقاطعة ولبة Huelva، ورحل إلى قرطبة، حيث انخرط فى سلك الإدارة الأموية، وارتقى فى مناصبها صعدا إلى أن أصبح وزيرًا للمنصور بن أبى عـامر.

نشأ ابن حزم فى هذا الوسط المتألق بذوى المناصب الرفيعة فى بلاط الخلافة، وفى هذه البيئة تعلم، ثم أكمل ثقافته الكلاسيكية وعمقها، ثم اندفع فى معترك السياسة، وسط العواصف الهوجاء التى ستطيح بالخلافة، وظل وفيًا للأمراء الأمويين الذين اختفوا واحدًا وراء آخر، ثم طواهم النسيان، وحينئذ تخلى عن لعبة السياسة، وعزف عن القيام بأى دور فعال فيما يتصل بأمور الدولة، ومنذ عام ١٠٢٤، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، وقف نفسه نهائيًّا على حياة الدرس والجدل، وكافح حتى نهاية حياته، وفى إصرار لا يعرف المهادنة، اتجاهات فقهاء المذهب المالكى الجامدة.

وفى تلك الفترة أخذ يحرر مؤلفاته الرائعة، فى الفلسفة والفقه وعلم الكلام، ويجىء فى مقدمتها تاريخه الرائع فى مقارنة الأديان ويحمل عنوان: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، ويضم نقدا حادًا لبعض الفرق الإسلامية كالأشاعرة، ولم تنج من نقده العنيف أيضًا الأديان السماوية الأخرى كاليهودية والمسيحية.

كان تأليفه فى كل فروع المعرفة التى أشرنا إليها وفيرا، غير أن أروع كتبه وأنضجها، وألفه ولما يزل فى طور الشباب الغض، كتاب «طوق الحمامة فى الإلفة والألّاف» وهو بحث صغير، ولكن قيمته لا تقدر بثمن، وعلى التأكيد يعتبر من نواح عديدة أكثر

الكتب أصالة، وأصدقها تمثيلا للثقافة العربية الأندلسية*.

ينثر المؤلف عبر هذا الكتاب، وهو من نتاج شبابه - كما قلنا - ذكرياته عن فترة مراهقته العابثة، ويبدو فيه كما لو كان عالما حقيقيا يحلل عاطفة الحب الولهان، من خلال أكثر مظاهره توترا، وفى نتائجه الطارئة، كالهجر والوصل والسلوان، ولقد كان **دوزى** أول من أظهر خبر وجود الكتاب، وفيما بعد درسه من المستشرقين الروسى بتروف، والإسبانى **أسين بلاثيوس**، والأمريكى ذو الأصل التشيكى **نيكل**، درسوه فى أناة واحدًا بعد آخر، وتوصلوا إلى نتائج لا يتفقون عليها فى أغلب الأحيان.

فأسين بلاثيوس[٢١] يرفض بخاصة، ونهائيا، الفكرة التى يقول بها دوزى، حين يرى أن كتاب طوق الحمامة لابن حزم وليد أصول وتربية غير عربيين قبل أى شىء، وأن الكتاب، فيما يرى هذا المؤرخ، شاهد على خصائص وراثية إسبانية، ومسيحية دون أدنى شك، تركت أثرها فى ابن حزم. ولكن عالم مدريد الأكاديمى، أى أسين بلاثيوس، لم يتردد، معتمدا على براهين حاسمة، فى أن يرفض القول بأن كتاب طوق الحمامة يعكس خصائص إسبانية

* نشرنا كتاب «طوق الحمامة» محققًا لأول مرة فى العربية، وصدرت الطبعة الرابعة منه عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥.

وانظر دراستنا له فى كتابنا: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة»، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

خالصة، ودون أدنى شك كان على حق فى دعواه*.

ومن المحتمل أن يكون الحب الأفلاطونى، كما حلله ابن حزم، وفيه من الرقة بقدر ما فيه من الكياسة، قد أسهم من موطنه فى إسبانيا العربية، من قريب أو بعيد، فى تطور الحب الرقيق Courtois الذى عرفته أوربا الغربية بعد ذلك. غير أن هذا الحب لم يكن من مبتكرات الأندلس، لأن بقية العالم الإسلامى كانت تعرفه، على الأقل منذ العصر الذى اشتهر فيه المشرق بتيارات من الأخلاق الاجتماعية، وبالميل إلى التصوف، وممارسة حياة النسك والزهد، وأوضح الحوادث دلالة مما ورد فى كتاب ابن حزم يمكن أن نجد لها نظائر، فى الزمن نفسه، وحتى قبل ذلك أيضا، بين صفحات الأدب العربى فى المشرق.

وعلى كل حال، يجب أن نضيف بأن بين تلك الحوادث ما عرف ابن حزم، وهو فنان فيما يكتب، كيف يضفى عليها جوًا حزينًا وأخاذًا حقًا، وهناك صفحة فى دراسته هذه عن الحب كثيرًا ما نردد ذكرها، لأنها تعطينا الإيقاع الدقيق لطابع الحياة فى قرطبة، خلال القرن الحادى عشر الميلادى، وبخاصة لأنها تتيح لخيالنا أن يستعيد، دون مجازفة،صورة مجتمع مصقول، كانت الرقة تتغلب فيه بالطبيعة على اللذات الحسية الجاسية. وهذه القصة الممتعة

* درسنا القضية تفصيلاً فى كتابنا: دراسات عن ابن حزم، الفصل: غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

تدور حول جارية شابة تسمى خلوة، دنا منها الشاعر القُرطبى المعروف، يوسف بن هارون الرمادى، ذات يوم، «وكان مجتازا عند باب العطارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء. فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه، وتخلل حبها جميع أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع، وجعل يتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض.

«فلما صارت بين رياض بنى مروان، رحمهم الله، المبنية على قبورهم فى مقبرة الربض، خلف النهر، نظرت منه منفردًا عن الناس، لا همة له غيرها، فانصرفت إليه فقالت له: دع عنك هذا، ولا تطلب فضيحتى، فلا مطمع لك فىّ ألبتة ولا إلى ما ترغبه سبيل».

«فقال: إنى أقنع بالنظر.

«فقالت: ذلك مباح لك.

«فقال لها: يا سيدتى، أحرة أم مملوكة؟

«قالت: مملوكة.

«فقال لها: ما اسمك؟

«قالت: خَلْوة.

«قال: ولمن أنت؟

«فقالت له: عِلْمُكَ والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك

مما سألت عنه، فدع المحال.

«فقال لها: يا سيدتى، وأين أراك بعد هذا؟

«قالت: حيث رأيتنى اليوم، فى مثل تلك الساعة من كل جمعة.

«فقالت له: إما أن تنهض أنت، وإما أن أنهض أنا؟

«فقال لها: انهضى فى حفظ الله!

«فنهضت نحو القنطرة، ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه، لترى أيسايرها أم لا، فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة.

«قال أبو عمر، وهو يوسف بن هارون، فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض، من ذلك الوقت إلى الآن، فما وقعت لها على خبر، ولا أدرى أسماء لحستها أم أرض بلعتها، وإن فى قلبى منها لأحر من الجمر»*.

لقد تخلصت الفتاة برقة ومهارة لا نظير لها من طلبه موعدًا للقاء آخر، وربما لا نجد فى الشعر الإسبانى العربى كله قصيدة بلغت من الرقة فى إنسانيتها، ما بلغته بعض جمل هذه الصفحة القصيرة[٢٢]، وأية ترجمة لها تشوهها، وتذهب بجمالها، وهى

---

* جاء المؤلف بالقصة مجملة، وأتينا بها كاملة: أنظر «طوق الحمامة»، ص ٤٠ ومابعدها، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكى، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨٥.

صفحة جديرة بأن نفسح لها مكانًا فى أية منتخبات تضم روائع الأدب العربى.

* * *

لا شىء يتيح لنا الأمل فى أن نكتشف النتاج الفكرى فى العصر الوسيط، ولما يزل مجهولاً لدينا حتى الآن، ومعه يمكننا أن نتبين ملامح تأثير آداب إسبانيا المسيحية فى أكثر الأعمال الفكرية شهرة فى العصر الأندلسى الكلاسيكى، ولم تأخذ ملامح هذا التأثير فى الظهور حقًّا إلا فى وقت متأخر جدًّا، فى العصور الأخيرة من تاريخ الإسلام الإسبانى، حين وجدت العلاقات الثقافية طريقها سهلاً ميسرًا فى ظل حركة «الاسترداد». ومن عدم الإنصاف طبعًا ألا نشير إلى الدور الذى اضطلعت به الجماعات اليهودية التى استقرت فى الجزيرة فى تنمية هذه العلاقات، ما تعلق منها بهذا العصر أو العصر الذى سبقه على السواء، وذكر كبار ممثليهم فى هذا الدور لا يمكن فصله عن أية دراسة تستهدف حضارة إسبانيا الإسلامية، مهما كانت موجزة، وقد أسهم فيها أهل الذمة، وأحيانًا كانوا أبطالها.

كانت توجد إبان العصر الوسيط، على الدوام، جالية من اليهود تقطن مدن إسبانيا الإسلامية، ومدنها المسيحية على السواء، كثيرة العدد، مزدهرة الحال، وبخاصة فى الجانب

الإسلامى، جيدة التَنظيم، تتوارث حب الدرس[٢٣]. وكان العلماء الذين أكسبوها هذه الشهرة يشكلون جمهرة غفيرة، وهم بعامة من التلموديين، ويسلكون طرقاً مشابهة لتلك التى يسير فيها فقهاء البلد المسلمين، ومنهم الأطباء، والمترجمين بخاصة، وأهلهم لهذا الدور ما عرفوا به من إتقانهم اللغات العربية والقشتالية والعبرية فى الوقت نفسه، وأحيانًا كانوا يعرفون إلى جانبها اللغتين اللاتينية واليونانية.

كان بين هؤلاء العلماء اليهود من نال شهرة واسعة، مثل حسداى بن شبروط، وأصبح سفيرًا ووزيرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر، وسلمون بن جبيرول، وعرفته أوربا فى العصور الوسطى تحت اسم Avicebron، وهو الذى جدد الشعر العبرى، وألف فى العربية بحثاً فلسفيًا مشبعًا بالأفلاطونية الجديدة، وحمل عنوان «ينبوع الحياة»، وما من أحد يجهل اسم موسى بن ميمون Maimonide، وألف كتابه «دليل الحائرين» باللغة العربية، وحاول فيه، بعد ابن حزم وابن رشد، وقبل توماس الإكوينى، أن يوفق بين الدين والعقل.

أما المترجمون، وبريق شهرتهم أقل، فكان إسهامهم أكثر فعالية فى الجهد الثقافى الكبير الذى اضطلعت به إسبانيا المسيحية، فى آخر فترة من فترات العصور الوسطى، وقبل أن ينتقل مركز الثقافة العبرية من جنوب ووسط شبه الجزيرة إلى قطلونية وبروفانس

شغل اليهود الجانب الأكبر فى فريق الترجمة الذى شكله ألفونسو العالم ملك قشتالة، وكانت كل مظاهر التأمل الفكرى تثير اهتمام هذا الأمير الإسبانى المستنير.

لقد أشرفت حركة «الاسترداد» على نهايتها فى العصر الذى كان يحكم فيه هذا الملك، ولكن إسبانيا التى استردها مسيحيو الشمال لما تزل متعرِّبة إلى حد بعيد، وشك ألفونسو فى الفائدة التى يمكن أن يجنيها من مثل هذه الحالة، والتى يجب أن تتغير بالضرورة مع مر السنين، ومن ثم أمر بقيام هيئة كبيرة للترجمة تحت رعايته، تنقل إلى اللغة القشتالية، ترجمة أو اقتباسًا، كل التركة الثقافية التى خلفها العرب فى البلاد، وعمل فى هذا المشروع تراجمة من المسلمين والمسيحيين، ومن اليهود بخاصة، فريقًا متكاملا، ويعملون متعاونين.

وفى هذه الفترة ذاتها أنشأ الأمير نفسه معهدًا للدراسات اللاتينية والعربية فى مدينة إشبيلية عام ١٢٥٤ م، ونال حماية البابا إسكندر الرابع ببراءة موقعة منه عام ١٢٦٠م، واتخذ فريق التراجمة من مدينة طليطلة بخاصة مقرًا لهم، وكان المسيحيون قد استولوا عليها من المسلمين قبل ذلك بقرنين من الزمان تقريبًا. وعمل هذا الفريق بإشراف ألفونسو المباشر وقام فى الجانب التاريخى بتدوين الكتاب الضخم «المدونة العامة Cronica general»، مستخدمين فى ذلك المصادر العربية القديمة، وترجم

فى المجال الأدبى كتبًا ذات شهرة شعبية واسعة، مثل «كليلة ودمنة»، ومع ذلك فإن دورها الأكثر أهمية كان فى نطاق العلوم الرياضية، والطب، وعلم الفلك بخاصة، وأسهمت المادة المترجمة فى العلم الأخير، أكثر من غيرها، فى شيوع شهرة هذا الفريق، وحملت اسم مدرسة طليطلة للترجمة تجوزًا. وكان يشار إليها أحيانًا باسم راعيها، فيقال المدرسة الألفونسية.

أدت مبادرة ألفونسو العالم إلى بعث الحمية والنشاط فى جهد سبق أن وجد طريقه إلى الحياة قبل ذلك بزمن طويل، ويدرك مداه من يدرس تأثير الثقافة العربية الأندلسية على مؤلفات أوربا الغربية التى تلت تلك الفترة، وبخاصة ما اتصل منها بالكتب الفلسفية، وسوف يكون إسهابًا مطنبًا أن نتتبع مظاهر هذا التأثير الخاص؛ والذى اشتهر بما سمى «الصوفية المسيحية»، وأبرز أعلامها رايموند لل، وتتلمذ مباشرة، فيما يبدو، على الطريقة الصوفية للإسبانى محيى الدين بن عربى*.

ومن جانب آخر، لم يعد أحد يجهل أن هذا التأثير أثار فى الأعوام الأخيرة مشكلة كانت موضع مناقشات حامية، بعدَ أن قدم المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس إلى عالم المثقفين

* راجع المقارنة الرائعة بين رايموند لل وابن عربى، والتى قام بها المستشرق الكبير خوليان ريبيرا، فى كتابنا: دراسات أندلسية، فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

نتائج ملاحظاته الفطنة، المتصلة بتأثير أدب الآخرة الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى الإيطالى[٢٤].

إن مدرسة كاملة من علماء الدراسات الرومانية، على رأسها رامون مينينديث بيدال[٢٥] تعارض اليوم النظرية البروفنسالية عن مصادر شعر التروبادور، وتربط منابعه بالشعر العامى فى إسبانيا، والزجل منه بخاصة، والمسألة معقدة، وصعبة الحل، وحتى لو درسنا فى موازنة هذين اللونين من الشعر، الزجل وشعر التروبادور*، وهما متشابهان ظاهرًا، لأن كلًا منهما يستخدم الدور*، وفسرنا سقوط المركز فى شعر تروبادور أقيطانية بعدم فائدته فى شعر البلاط، ولا جدوى من ترديد الجوقة له، فإن هذه المشكلة، فى كل الأحوال، سوف يراق فى سبيلها مستقبلًا حبر كثير. أما فى هذه اللحظة فكل ما يتاح لنا أن نتقدم به القول بأن علاقات ما قامت بين الطرفين فى إسبانيا الإسلامية ومقاطعة بروفانس، على امتداد الزمن دون أدنى شك فى هذا.

كيف كان يتم التبادل بين الجانبين؟ محاولة تحديد هذا ضرب

---

* لمعرفة تاريخ التربادور، يمكن الرجوع إلى فصل «الشاعر الجوال» فى كتابنا: ملحمة السيد، دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

* الدور فى الزجل، أو الموشحة، يتكون من المركز، والأغصان والقفل، انظر كتابنا: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة الفصل الخامس بالشعر الأندلسى والشعر الأوربى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

من المغامرة، وفيما يتصل بالأشعار الموريسكية* الشهيرة، وكانت مملكة غرناطة فى القرن الخامس عشر الميلادى، والحمراء منها بخاصة مسرحًا لها، ولا شيء يبرهن على أنها كانت مجرد نقل إلى أن نجد ما يقابلها فى اللغة العربية، ومع ذلك، كانت هذه الأشعار أو بعضها، آخر إطلالة للثقافة الأندلسية امتد بها الزمن، بينما الإسلام يرحل من شبه الجزيرة، وهى لا تختلف فى مصادر إلهامها عن كثير من الأزجال الشائعة اليوم فى فاس أو الرباط، حيث احتفظ المغنون المحترفون بجوهر الحكايات العربية الغرناطية سالمًا، منذ أواخر العصور الوسطى، دون أن يدركوا حتى معانى كلماتها فى بعض الأحيان.

* * *

وعدنا بأن نضع حدا لجميع هذه الاعتبارات، وربما وجدها البعض صورية إلى حد بعيد، لكن ما من أحد يستطيع أن يعيب عليها أنها لم تكن موضوعية على نحو دقيق. وهو دون ريب أهم ما يطلب فى نظرة مجملة، حاولنا خلالها أن نضع الحضارة العربية الإسبانية فى مكانها الحقيقى، من نطاق الحضارة المشتركة على امتداد الأرض الإسلامية كلها، بقدر ما حاولنا أن نبين موضعها

* تطلق كلمة موريسكوس Moriscos على المسلمين الذين ظلوا فى إسبانيا بعد سقوطها فى يد المسيحيين، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية، وعلى التحدث بالإسبانية ثم تقرر طردهم، بعد أن شك رجال الدين فى مسيحيتهم، عام ١٦١٣.

فى إطار حضارة أوربا الغربية فى العصر الوسيط.

ونعتقد أننا برهنا فى دقة كافية على أن الثقافة الأندلسية، ولو أنها ظلت وفية تماما لأصولها المشرقية، أخذت من جانب آخر تعى شخصيتها وقوتها شيئًا فشيئا، وعرفت من جانب آخر، فى زمن أقرب إلينا، كيف تفرض نفسها بقدر كاف خارج حدودها الإسلامية، فأقيمت فى هذه الأمكنة مؤسسات وأشكال اجتماعية شبيهة بما كان عليه الحال عندها، وأثّرت على نحو خاص فى تطور الفكر والمعرفة الأوربية فى عصور ما قبل النهضة، وفى ظروف ليس من السهل، دائما تحديدها الآن بدقة.

غير أن هناك سؤالا يطرح نفسه الآن، ولا مفر من الإجابة عليه: ما نصيب الحضارة العربية فى إسبانيا، لافى العصور الوسطى فحسب وإنما فى أيامنا هذه، من التراث الذى تلقاه شبه الجزيرة من ماضيه البعيد؟. أما أن الأندلس خلّف وراءه تراثا فشىء مؤكد، وليس فى ذلك أدنى شك. ولكن، هل كان فى مجمله نافعا أم ضارا؟ هذه قضية تهيمن منذ سنوات على نقاش واسع، يجرى فى انفعال حاد دائما، وفى عنف بالغ أحيانا، وليس على جانب واحد من جبال البرانس فحسب.

وأنا أعرض لهذا الموضوع حذرا، ودون تعصب لأى جانب، وبخاصة أننا فى فترة تجتاز فيها إسبانيا أشد اللحظات فجاعة فى تاريخها القومى كله، ذلك أن بربر شمال إفريقيا عبروا مضيق جبل

طارق مرة أخرى، مع فريق إسبانى وضد فريق آخر، للدفاع عن حركة صوفية اجتماعية، وليس ثمة ما يحول دون الظن بأنها من المحتمل ألا تكترث بهم*.

ويجب أن نبادر فى الحال إلى استبعاد بعض التأكيدات لأنها نفسها تحتاج إلى تأكيد، فهى تعتمد فيما تزعم على وثائق ليست بريئة من الغرض والهوى دائما، ولا سيما أن لهجتها الجافة والحاقدة معا تجعلها موضع الشك القوى منذ اللحظة الأولى، ومن جانب آخر لأنها تصدر عن كتاب ليسوا إسبانًا، ولا مؤرخين، ولا متخصصين فى الدراسات الإسبانية. وأكثر من هذا كله، وعلى غير معرفة بالإسلام!. ولهذا يلقون على المسلمين عقم إسبانيا وتفريغها من السكان، وأنهم جعلوا منها «صحراء مثل شمال إفريقيا» ويستطيع المرء أن يقسم وهو يقرأ لهم هذا الكلام أنهم لم يسمعوا أبدا وشوشة مياه النوافير فى جنة العريف، ولم يستنشقوا أبدا أريج النسيم العطر فى إبهاء قصر إشبيلية، وهم يرون وأنا أنقل رأيهم حرفيا : «إن أقل ما يمكن أن يقال أن الحكم الإسلامى كان كارثة كبرى حلت بإسبانيا»(٢٦).

لا يوجد الآن أى مثقف فى إسبانيا يجرؤ على أن يرسل مثل هذه

---

* يشير إلى مشاركة سكان شمال المغرب، وكانوا تحت الحكم الإسبانى إذ ذاك، فى حملة الجنرال فرانكو خلال الحرب الأهلية الإسبانية، ١٩٣٦-١٩٣٩، حين أخذ جانب الفاشية، واستطاع أن يأتى على الجمهورية، ويبقى حاكما إلى أن توفى عام ١٩٧٦. (المترجم)

القولة، أو يقول بمثل هذا الرأى المفرط فى الشطط والمبالغة ، فقد جاء كرد فعل ضد اتجاه ساذج، ساد فى شبه الجزيرة نفسها، يوازن بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية فى العصور الوسطى، فيرى الأولى مثقفة مستنيرة، على حين تقبع الثانية فى الهمجية والظلام.ولكن إسبانيا، على الأقل قبل عام ١٩٣٦، عرفت كيف ترد إلى إسلام الأندلس مكانته فى مراتب الشرف، وادعت علنًا، مرفوعة الرأس، أن تراث الأندلس زهرة يانعة الجمال فى تراثها التاريخى والفكرى، ولم تجد حرجا فى الاحتفال مزهوة بمرور ألف عام على تأسيس الخلافة الاسلامية فى قرطبة، وبعد ذلك بسنوات احتفلت بذكرى الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون، وحرصت، دون تصنع، على ألا تبالغ فى التمجيد، وعلى ألا تهمل لحساب أمجادها الإسلامية جميع مفاخرها القومية الأخرى، وليدة أرضها القاسية وماضيها المسيحى، وأحيانا أيضًا، دون أن تقرر فى حسم، عادت تتأمل ماحولها من مظاهر وربما جاءتها إرثا من الإسلام، وما من أحد يستطيع الامتناع عن السير وراءها فى هذا المجال.

لقد طبعت حركة «الاسترداد» بطابعها، وتحركت باسم مثالية سياسية ودينية، كل تاريخ شبه الجزيرة فى العصر الوسيط على نحو قوى. وكانت عملا اتسم بالأناة الصابرة، والإرادة القوية الحاسمة، وهو فى مثابرته، والجهود المضنية التى بذلت فى سبيله،

على امتداد ثمانية قرون، يثير الإعجاب، ويستدعى الاحترام، وإذا لم يبعد هذا العمل الجوهرى إسبانيا عن كل واجباتها وكل الأعمال الأخرى، فقد أدى على الأقل، منطقيا، إلى تأخر إنجازها. لقد جعلت حركة«الاسترداد» من الممالك المسيحية المختلفة فى شبه جزيرة إيبريا الطليعة الحارسة واليقظة دومًا، وعلمها أخيرا أن مهمتها لن تكلل بالنجاح إلا إذا دفعت الثمن كاملا، وحدة سياسية تجمع بين قشتالة وأرجون فى ظل تاج واحد.

لقد حافظت إسبانيا فى نفوس أبطالها، خلال كل العصور، على روح محارب، وعنيف أحيانًا، وشعور دينى متوحش، ووجدت الكتلة الإيبرية نفسها، عبر كل حروب الاسترداد، منقسمة إلى حزبين، وتوقفت نهضتها الاقتصادية المتنافسة دفعة واحدة، فى مجملها، وأطلقت العنان لقيام دولتين إسبانيتين، تمور كل واحدة منهما باضطرابات داخلية، ولكن ذلك لم يدفع أيًّا منهما إلى أن تتعمد تجاهل الدولة الأخرى.

ولعل إسبانيا المسيحية لم تقدر، عندما تمت حركة «الاسترداد» على نحو كاف من الوضوح، ما أصابها من تأخر واختلاف عن بقية دول أوربا، بسبب كفاحها طيلة أجيال عديدة فى سبيل وحدتها القومية، ثم أخذتها النشوة قليلا لأنها وقعت على سلسلة من الفرص المفيدة، مثل اكتشاف أمريكا واستغلالها، والتفوق

العسكرى بسبب تدربها الطويل على فن الحرب، واتحادها مع ألمانيا عند ماورث أحد آل هبسبورج ملكى إسبانيا فرناندو وإيزابيل، وبدافع من كل هذا انزلقت نحو سياسة خارجية متهورة ومغامرة، لم تخرج منها إلا وهى منهوكة القوى.

ولكن، هل يمكن حقا أن نرد هذا الاستنزاف لقواها قبل الأوان إلى الإسلام الإسبانى؟ نعم، دون أدنى شك، فى نطاق أن الاسلام فرض على إسبانيا المسيحية لو نا من السلوك لا تستطيع أن تحيد عنه، ولا أن تخرج عليه، حتى القرن الخامس عشر الميلادى، فأنضب هذا كل فاعليتها، واستنفد جميع طاقاتها، ومع ذلك، يمكن بالتأكيد أن يكون الجواب: لا، فى المجالات التى ساعد فيها الإسلام إسبانيا، حين نفخ فى روحها ثقافة تتلاءم مع عبقريتها الخاصة، لكى تستطيع أن تواصل السير فى الطريق الذى سلكته بقية دول أوربا الغربية قبلها، فانتهى بها إلى عصر النهضة.

كان السياسى العالم كلاوديو سانتشيث البرنس* رئيسا لجامعة مدريد، وسفيراً لبلاده ثم وزيرا لشئونها الخارجية، ولكنه يبقى، قبل كل شئ، مؤرخا على مستوى رفيع، وأخذ يتأمل طويلا المأساة

* حين قامت الجمهورية اختار كلاوديو جانب الجمهوريين، وحين هزمت خرج إلى المنفى، واستقر أخيرا فى الأرجنتين، يدير قسم التاريخ فى كلية الآداب بجامعة بونس أيرس، واختاره الجمهوريون رئيسا للجمهورية فى المنفى طوال حكم فرانكو، وتميز بأبحاثه التاريخية العميقة، عن إسبانيا فى العصور الوسطى، ولو أنها تنضح بلون من القومية الغالية، ثم عاد أخيرا إلى إسبانيا وتوفى عام ١٩٨٥. (المترجم)

الفكرية لإسبانيا الحزينة، وقد استطال بها الزمن، ولما تتوقف. وراح يسأل نفسه عما إذا كان وطنه، وجعلته مهمته فى مواجهة الإسلام يقظا، واضطرب مصيره اضطرابا عنيفا، لا يزال إلى اليوم أيضا «منكوبا بعيب جوهرى». إنه يصرخ بكل جوارحه، والحق كله معه، لأن كل ما يوده أن يرى إسبانيا «تنفض عن نفسها غبار ماض ثقيل لما يزل يضغط على روحها». غير أنه أيضًا يعرف أكثر من أى شخص آخر، كيف أشرق الإسلام على هذه البلاد، وما ترك تراثه الحقيقى فيها من أثر عميق على الفكر الإسبانى لا يمكن إنكاره. ولنفسح له مجال القول فى الختام، لكى نردد معه كلمة كلمة هذا الاعتراف العفوى المؤثر[٢٧] : «لا يمكن لأحد اليوم أن يتحدث عن ظلمات العصور الوسطى، كما كان عليه الحال من قبل ، ولكن علينا أن نذكر أنه فى مواجهة أوربا التى ترقد فى التعاسة والانحطاط، والبؤس الفكرى والمادى، كان الإسبان المسلمون يبنون حضارة رائعة، واقتصادا مزدهرا. وكل يوم يدهشنا الأساتذة من المستشرقين الأسبان، ممن وقفوا أنفسهم على الدراسات العربية[٢٨]، بما يقعون عليه من شواهد جديدة، عن مدى تألق الثقافة الإسبانية الإسلامية وعمقها، وهم يدعون أنها لعبت دورا حاسما فى تطور الفن والفلسفة والعلم والشعر، وجميع ثقافة أوربا المسيحية، وبرهنوا على أن الحضارة الإسلامية الإسبانية تركت طابعها فى أعلى قمم الفكر المسيحى فى القرن الثالث عشر، مثل القديس توماس الإكوينى، وشاعر إيطاليا الأكبر

دانتى، ولكن مازال هنا وهناك على جانبى جبال البرانس وعلى ضفتى البحر الأبيض المتوسط، من ينفر من هذه الأستاذية العربية الإسبانية، لا يقبلونها فى سهولة، ويرفضون أن يعترفوا لها بهذا التفوق، رغم الشواهد العديدة والثابتة التى تدعمها الآن. والتى نكتشف كل يوم مزيدا منها، وكلها تؤكد ما كانت عليه الحياة المادية والفكرية من ازدهار فى إسبانيا الإسلامية، ولقد مرت قرون عديدة قبل أن يعمل «عصر النهضة» على تفجير ينابيع جديدة من الحضارة الكلاسيكية أوشكت أن تنضب، وكان نهر الحضارة الأندلسية الزاهية خلالها يتدفق فى قرطبة قويا وعاليا، فيبلغ مده بقية أنحاء أوربا، على امتداد العصر الوسيط، حضارة عرف الإسلام كيف يحتفظ فيها بجوهر الفكر القديم، وينقله إلى العالم الجديد».

● الهوامش والتعليقات :

(١) انظر: هـ. بيرين، محمد وشارلمان» ص ١٤٣ و٢٦٠.

(٢) كلاوديو سانتشيث البرنس: إسبانيا والإسلام ص ٥.

(٣) فيما يتصل بهذه المسألة انظر كتابي: إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٣٣ ومابعدها.

(٤) انظر دوزى: تاريخ المسلمين فى إسبانيا، الطبعة الجديدة الجزء الأول، ص ٣١٧ و٣١٨: وذكرها أيضًا: سيمونيت، وجو نثالث، وف. لوت فرديناند.

(٥) انظر كتابي: إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى: ص ٣٥ ويجب أن نذكر أيضا زواج ألفونسو السادس ملك قشتالة بأميرة مسلمة. انظر: ليفى بروفنسال، سيدة المسلمة زوجة ألفونسو السادس القشتالى وولدهما، فى مجلة هيسبيريس المجلد ١٨، ١٩٣٤، ص ١-٨.

[والمقال مترجم إلى اللغة الغربية فى كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس، بعنوان: زايدة المسلمة زوجة ألفونسو السادس وولدهما الأمير شانجة Sancho ص ١٥١-١٦٤، وقد نشر الكتاب فى سلسلة الألف كتاب فى القاهرة، عام ١٩٥٦، ويلاحظ أن المترجمين كغيرهم قبلهم ترجموا لفظ Zaida باسم زايدة، والحق أنه سيدة].

(٦) أتيت على هذه الحوادث تفصيلا فى كتابي: تبادل السفارات، فى مجلة بيزنطة، ١٩٣٧.

(٧) انظر كتابي: إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ١١٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٥٢ وما يليها.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٩، هامش رقم ١.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٨-٣١.

(١١) المصدر نفسه، ص ٥١، هامش رقم ٢، وهى مأثرة أوضحها ف لوت، فى كتابه: الغزوات البربرية، ص ٦٧.

(١٢) نجد أمثلة مماثلة فى:

● جونثالث بالنثيا: الإسلام والغرب، ص ٢٧-٢٩.

- ج. ب. ترند: إسبانيا والبرتغال، فى كتاب «تراث الإسلام». ص ١٩-٢٧.
- ف. لوت: الغزوات البربرية، ص ٧٠-٧١.

ولدراسة أكثر تفصيلا يمكن الرجوع إلى:

- ر. دوزى وآخرون: معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية، الطبعة الثانية ليدن، ١٨٦٩.
- د. ل. إيجالث: معجم الكلمات الإسبانية ذات الأصول المشرقية، غرناطة، ١٨٨٦.

أما تأثير اللغة الرومانية على اللهجات العربية الإسبانية فقد درسها من قبل:

- ف. خ. سيمونيت: معجم الألفاظ الإيبرية واللاتينية المستخدمة بين، المستعربين، مدريد، ١٨٨٩.

وتبدو بخاصة، وعلى نحو شامل، فى الدراسات التى قام بها مؤلف هذا الكتاب وحده أو بالتعاون مع ج. س. كولين، عن الشرطة المدنية الإسبانية.

(١٣) القوائم التى نشرها جونثالث بالنثيامهمة جدا، إلا أنها نشرت فى الأغلب على نحو خاطئ، وذلك فى المجلد الذى جاء مقدمة للدراسة الهامة التى نشر ها بعنوان: مستعربو طليطلة فى القرنين الثانى والثالث عشر الميلاديين، مدريد ١٩٣٠.

وانظر كذلك الملاحق المفيدة التى وضعها سانتشيث البرنس لكتابه: صور من الحياة فى ليون خلال القرن العاشر الميلادى ١٨٦-٢١١.

(١٤) انظر استردادها خيالا، كما عرض له سانتشيث البرنس، في مؤلفه السابق، ص ١٤٣-١٤٤.

(١٥) انظر: سانتشيث البرنس فى كتابه «إسبانيا والإسلام»، ص ١٠، حيث يقول:

«لم تستعمل الممالك المسيحية أبدا، خلال مدة تقرب من ٤٠٠ عام سوى العملات العربية والفرنجية، وبقى ملوك قشتالة بعد ذلك ما يقرب من قرن كامل قبل أن يضربوا لهم عملة ذهبية، وكان تقليد العملات الفرنجية والعربية يتم فى امانة، سواء ما اتصل منها بضرب القطع الفضية فى آواخر القرن الحادى عشر الميلادى، أم من أجل صك العملات الذهبية فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر».

(١٦) انظر: ليفى بروفنسال، السيد فى التاريخ، ص ٧٢.

(١٧) ر. دوزى: أبحاث عن تاريخ وأدب إسبانيا فى العصر الوسيط، الطبعة الثالثة، الجزء الأول ص ٢٠٤.

(١٨) فى كتابه : كنائس المستعربين، وقد ألحق به مجموعة من الصور.

(١٩) فى مقال له بعنوان : الفن الإسبانى - المغربى والفن الرومانى، مجلة هيسبيريس، المجلد ١٧، ١٩٣٣، ص ٤٢-٤٣.

(٢٠) هنرى بيريس : الشعر الأندلسى، ص ٤٧٥.

(٢١) انظر كتابه : ابن حزم القرطبى، المجلد الأول، ص ٤٨ ومايليها.

(٢٢) يمكن أن تقرأ هذا النص فى مقدمة بتروف باللغة الفرنسية، لطبعته من كتاب طوق الحمامة، ليدن ١٩١٤، ص ١٦-١٧.

(٢٣) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ٣٧-٣٩.

(٢٤) لخص أسين بلاثيوس هذه المناقشات، فى فصلة من مجلة المجمع الملكى الإسبانى، ونشرها عام ١٩٢٤، وفيما بعد ألحقها بنهاية كتابه : «الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية»، وصدرت طبعته الأولى عام ١٩١٩.

(٢٥) الشعر العربى والشعر الأوربى، فى المجلة الكوبية، عدد يناير - مارس ١٩٣٧، ولست أعرف هذا البحث حتى الآن إلا من خلال العرض الذى قدمه له ج. جيرو فى المجلة الإسبانية، عام ١٩٣٧، ص ٤٣٠-٤٣٢.

[وفيما بعد أضاف إلى البحث قضايا كثيرة، ونشره مستقلا بنفس العنوان، فى سلسلة أوسترال، التى تصدرها دار إسباسا - كالبى فى مدريد، وصدرت منه طبعات عديدة].

(٢٦) لويس برتراند : تاريخ إسبانيا، فى المجموعة التى تصدرها دار فيارد، بعنوان : الدراسات التاريخية الكبرى، باريس ، ١٩٣٢، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢٧) إسبانيا والإسلام، ترجمة ب. جينار، ص ٥.

(٢٨) سانتشيث البرنس يحدد هؤلاء الأساتذة بأنهم : ريبيرا، أسين بلاثيوس، غومث مورينو، ومن العدل أن نضيف إلى هذا التكريم إسبانا آخرين متضلعين فى اللغة العربية، أقل سنا، وكذلك أعضاء مدرسة الاستشراق الفرنسى، التى جددت البحث العلمى فيما يتصل بالأندلس، منذ حوالى عشر سنين، وبخاصة فى الرباط والجزائر.